



# حولية كلية البنات بجامعة عين شمس

العدد الحادي عشر

1

مطبعة جامعة عين شمس

١٩٨٥

[ رئيسة التحرير ]

[ المشرف على القسم الأدبي ]

⊗ الأستاذة الدكتورة فاضمة مظهر

⊙ الدكتور يوسف حسين نوفل

## الفهرس

القسم العربى :

صفحة	
١٥ - ١	جابر بن حيان الصوفى الكيمائى - الدكتور سعاد على عبد الرازق
٣٢ - ١٧	اهمال الصرف الصحى واثره على البيئه - الدكتور هيام عبد الرحمن سليم
٥١ - ٣٣	البليوجرافيا الادبية - الدكتور يوسف حسن نوفل
٩٢ - ٥٣	العوامل الجغرافية المؤثرة فى توزيع المدن السعودية - الأستاذ الدكتور محمود محمد عبد اللطيف عصفور
١١٢ - ٩٣	الدراسة الجغرافية لبعض مشكلات البيئه كاتجاه معاصر فى الجغرافية التطبيقية - الدكتور عابدة نسيم بشارة
١٧٩ - ١١٣	تقويم منهج الرياضيات بالقسم التربوى بكلية البنات - جامعة عين شمس - الأستاذة الدكتورة معصومة محمد كاظم
٢٠٨ - ١٨١	اقتصاديات نقل الغاز الطبيعى والفحم فى مصر - الدكتور سعيد احمد عبده
٢٤٤ - ٢٠٩	العلاقة بين القيم والحاجات والميول المهنية (دراسة عاملية) - الدكتور نادية محمد عبد السلام



## جابر بن حيان الصوفي الكيميائي

للدكتورة سعاد على عبد الرازق

مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف

يعتبر علم الكيمياء من أقدم العلوم التي عرفها البشر على الإطلاق ، فقد ازدهر لدى كهنة المصريين القدامى ولدى الكلدانيين والآشوريين والصابئة والقباليين اليهود ، أي أن البشرية قد مارسته قبل ميلاد المسيح بزمن بعيد ، وكان له تاريخ طويل . ويذهب الأستاذ « هولميارد Holmyard » - مؤرخ الكيمياء المشهور إلى أن الأبحاث مازالت مستمرة في الكشف عن أصوله ، وعن تاريخ الكيمائيين المختلفين لا في بلاد الشرق الأوسط فقط بل في جميع بلاد العالم المختلفة كأوروبا وأمريكا وآسيا وأفريقيا . . . ويقرر هولميارد أن ازدهار الكيمياء قد حدث منذ القرن الثامن الميلادي وحتى أواسط القرن السابع عشر .

وقد مارس الكيمياء كثير من الملوك والأباطرة والباباوات ورجال الكنيسة والصناع ، ومن هؤلاء روجر بيكون وأليير الكبير وتوما الأكويني وتوماس براون وجون إيفلين وإسحاق نيوتن ، وغيرهم من المفتونين بالكيمياء .

أما من الملوك فقد كان للملك شارل الثاني معمل كيمائي خاص تحت المخذع الملكي ، يستطيع الوصول إليه بسلم خاص ليقتضى وقتاً طويلاً في إبحاث كيمائية . : وكان من الملوك الكيمائيين هرقل الثاني ملك بيزنطة ، وجيمس ملك اسكتلندا والامبراطور رودولف الثاني .

وكان كثير من الكتاب والمؤلفين يفردون فصولاً خاصة في مؤلفاتهم ويشيرون بإشارات متعددة الكيمياء ومن هؤلاء شكسبير وتشومسر الذي كتب إحدى حكاياته في « حكايات كنتر بيري » عن الكيمياء ، وكذلك كتب بن جونسون إحدى تمثلياته تحت عنوان « الكيمياء » وفيها دلالة على معرفته الواسعة بالكيمياء .

والكيمياء طبيعتان مزدوجتان : طبيعة خارجية ، وطبيعة داخلية - أما الكيمياء

الخارجية : فهي التي تعنى بمحاولات تكوين جواهر أو حجر الفلاسفة ، وذلك بتحويل المعادن المختلفة إلى ذهب وفضة ، وهو ما يسمى ( بالأكسير ) . ولم تكن الغاية من هذا الأكسير هي الحصول على قوة تحويل معدن إلى آخر ، بل أيضاً محاولة التوصل إلى إطالة الحياة وجعلها أبدية خالدة . . وقد أدى الاعتقاد بأن الحصول على هذا إنما يتم بمدد المي وتوفيق رباني فحسب ، قاد إلى ظهور النوع الثاني من الكيمياء ، وهي ( الكيمياء الصوفية ) . وقد تطورت هذه الكيمياء الداخلية أو الصوفية بالتدرج إلى مذهب في التقوى ، عن طريقها يستطيع الصوفي الكيمائي تحويل النفوس الخاطئة ( النفس الأمارة ) إلى حالة من الطهارة والنقاء ، لتستكين النفس وتصفو ( النفس المطمئنة ) ويتم ذلك خلال الصلوات والأستسلام المطلق لإرادة الله ( إسقاط التدبير ) . . وقد اختلط هذان النوعان من الكيمياء بحيث نجد الكثير لمن الكتب الصوفية التي ألفت باسم ( الكيمياء ) لا تتكلم عن تحويل المعادن ، بقدر ما تستخدم مصطلحات الكيمياء الداخلية للتعبير عن الآراء الفلسفية واللاهوتية والعقائد الصوفية المختلفة (١) .

ومن هذا نرى أن الكيمياء قد نشأت وهي تحوى بجانب تجربتها العلمية، عالماً من الأساطير والخرافات ، ثم خطت خطوة أخرى حين جذبت الكيمياء السحرة والكهان فاختلطت بالسحر ، ثم سميت إلى خلط تجاربها الأولى البدائية بالروحانيات والتوجه نحو هياكل النجوم والكواكب . ولذلك نرى علم الكيمياء وقد أزدهر لدى كهنة قدماء المصريين ، كذلك لدى الكلدانيين ، والأشوريين والصابئة والقباليين اليهود . . ومن أهم الأسماء التي أختلطت في تراثها الكيمياء بالروحانيات : هرمس ، أنماذمون ، وبولس ، وديمقريطس وأرجيلاوس ، وأسطفانوس . . الخ . ومن الملاحظ أن بعض هذه الأسماء اسطورية والبعض الآخر حقيقة (٢) .

وقد انتقل هذا التراث بالكامل - سواء الأسطوري منه أو الحقيقي - إلى العالم الإسلامي ، وكان من أوضح الظواهر لدارسي تاريخ الكيمياء في العصور الوسطى ،

(١) Ho lmyard : Alchemy, p. 13 — 14.

(٢) نفس المصدر السابق .

أن هؤلاء الذين عانوها كانوا من الزهاد والمتصوفة ، بحيث نسب إلى بعضهم صراحة أنهم كانوا صوفية . وسرى هذا من خلال عرضنا لهذه الشخصيات الإسلامية من الكيمايين وأصحاب الصنعة . ولم يكن كيمايئوا المسلمين بدعاً في هذا . فإننا نرى هذا أيضاً في العالم المسيحي الوسيط فيما بعد ، بحيث شغل مجموعة من آباء الكنيسة بالصنعة والسحر وعلوم الأوثان . وقد مارس ألبرت الكبير ، وتوما الأكوين الكيماياء وشغلوا بالصنعة ، أى تحويل المعادن المختلفة إلى ذهب وفضة . . وكانت قد وصلتهم مجموعة من الكتب العربية المختلفة في هذه الموضوعات ، وذلك من خلال حركة ترجمة التراث العربي والإسلامي إلى اللاتينية وانتقاله إلى أوروبا . وكان ( ليو الأفريقي ) هو الذي نقل إليهم هذه المجموعة .

أما هذه المقالة فهي محاولة لإلقاء الضوء على شخصية من أهم الشخصيات الإسلامية التي اختلط فيها الكيماياء بالتصوف وهي شخصية ( جابر بن حيان ) .

( ١ )

### اسطورة جابر بن حيان (سنة ١٦١ هـ)

من المعروف أن (جابر بن حيان)، هو أول كيميائي مسلم عانى « علوم الصنعة » ، واستطاع أن يترك فيها تراثاً علمياً وصل إلى أوروبا المسيحية خلال العصور الوسطى ، وأثر في علم الكيمياء فيها أكبر تأثير . كما أثر فيها أيضاً بمنهجة التجريبي . ولكن ما لبثت الأبحاث الأوروبية الحديثة أن تناولت جابر بن حيان وكيميائه ، كما تناولت حقيقة مانسب إليه ، وأنهى الأمر بهذه الأبحاث – وبخاصة بعد أن قام بول كراوس سنة ١٩٣٠ م بنشر الرسائل المنسوبة إلى جابر – إلى إنكار حقيقته التأويحية . واعتباره أكذوبة من أكاذيب العصور الوسطى ، ومن هنا نشأت ما يقال لها : أسطورة جابر بن حيان . وسنحاول أن نعطي بعض أمثلة من هذه الأبحاث، والتي أدت كلها إلى إنكار وجوده . أو إنكار صحة الكثير من رسائله – على ما بين هذه الأبحاث من تفاوت علمي أو حيدة منهجية .

أما الأستاذ « روسكا » فقد قام بدراسة الجانب الكيميائي في أعمال الإمام جعفر الصادق العلمية ، وقد أنكر أن تكون الرسائل المنسوبة لجابر بن حيان قد صدرت عن جعفر الصادق أو من عصره . فهو يرى أن العالم الإسلامي لم يعرف الكيمياء في هذا العصر المبكر في هذه الصورة الناضجة التي تصبغ وتسيطر على الأبحاث التي تركت لنا باسم « جابر بن حيان » . كما أنه من المستحيل خلال النقد الباطني للنصوص ، أن تكون الرسائل بقلم واحد ، بل من المؤكد أنها عمل أفراد متعددين ومتباين التاريخ .

ثم جاء المستشرق المشهور « بول كراوس » – وقد كان لكراوس فضل نشر بعض مختارات من رسائل جابر بن حيان ثم قيامه بتحليلها – وأنهى إلى نتيجة يراها هو مؤكدة : أن الرسائل ليست قطعاً لجابر بن حيان ، إن صح وجوده ، كما أنها أيضاً ليست من أعمال جعفر الصادق أو وحيه ، بل هي صادرة عن روح اسماعيلية ، متأخرة ، ويمجدها بأواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري .

أما الأستاذ « شميدر » فقد أنكر حقيقة جابر بن حيان الإسلامى ، وقد استند فى هذا إلى أن الكتابات الكيميائية التى تركها جابر بن حيان المزعوم ، إنما تحتوى معرفة وثيقة بالتراث اليونانى والكيميائى والفلسفى عامة . مما يدل على استحالة مسلم أو عربى عليها فى القرن الثالث الهجرى . ولهذا ذهب إلى فرض ارتآه من قبل « ليو الأفريقى سنة ١٥٢٦ - وهو من أكبر علماء الكيمياء الأفريقيين - وهو أن جابر يونانى اعتنق الإسلام وأجاد العربية وكتب بها فى « أشيلية » ، وأسس بها مدرسة كانت لها بعد شهرة كبيرة .

ثم يأتى الأستاذ « برتلو » ، وقد قسم المؤلفات المنسوبة إلى جابر بن حيان إلى قسمين : قسم عربى ترجم البعض منه إلى اللاتينية ، وهو مهوش مضطرب ملى بالابتهالات ، وفيه المبدأ الغنوصى المشهور : أن لكل شىء ظاهر وباطن . الخ - ، وقسم لاتينى ، حقاً أن به بعض المصطلحات العربية الإسلامية ، ولكنه منظم غير مشوش وفيه منهج تجريبى واضح ، ويختلف تمام الاختلاف عن القسم الأول .

وينتهى « برتلو » إلى القول : أنه لا بد وأن تكون الكتب الأخيرة اللاتينية ذات المنهج العلمى التجريبى ، من عمل لاتينى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وضع هذه الكتب ونحلها بهذا الأسم المشهور فى تاريخ الكيمياء وهو « جابر بن حيان » . ومن المحتمل كثيراً أن يكون الشق الأول من تحليل « برتلو » صحيحاً ، وهو أن القسم الأول من المؤلفات من عمل جابر بن حيان فى هذا العصر المبكر ، ولكن الخطأ الواضح الذى وقع فيه برتلو أن الكتب ذات المنهج العلمى التجريبى المتكامل ليست كتباً ذات أصل عربى . وهذا هو الدليل على هذا الخطأ الحاسم :

( ٢ )

### جابر بن حيان الحقيقي

لم يشك المحدثون من الباحثين الأوروبيين فقط في وجود جابر بن حيان . فقد فعل هذا من قبل مجموعة من الباحثين الأقدمين من العرب . وقد عرض مؤرخ العلم القديم « ابن النديم » صاحب « الفهرست » للآراء المختلفة حول حقيقة الرجل فقال : « اختلف الناس في أمره ، فقالت الشيعة أنه من كبارهم وأحد الأبواب . وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق ، وكان من أهل الكوفة . وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم وأن له في الفلسفة والمنطق مصنفات . وزعم أهل الصناعة والفضة أن الرياسة انتهت إليه في عصره ، وأن أمره كان مكتوماً . وزعموا أنه كان يتنقل في البلاد لا يستقر به بلد خوفاً من السلطان على نفسه . وقيل أنه كان في جملة البرامكة ومقطعاً لإبهم ومتحققاً بجعفر بن يحيى . فنزعم هذا قال : أنه غنى بسيدته جعفر ، هو البرمكي . وقالت الشيعة أنه جعفر الصادق (١) » .

هذه هي الآراء المختلفة في جابر بن حيان . وقد دعا التضارب في حقيقة الرجل إلى أن جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين قالوا : أن هذا الرجل - يعنى جابر بن حيان - لأصل له ولا حقيقة . وبعضهم قال : أنه ما صنف وما كان له حقيقة إلا كتاب « الرحمة » ، وأن هذه المصنفات صنفها الناس ونحوها إياه (٢) . ويذهب إلى هذا أيضاً « ابن نباته » في « سرح العيون » وينكر حقيقة جابر بن حيان .

وفي الحقيقة أن ابن النديم عرض لنا الآراء المختلفة في حقيقة الرجل . ولم يوافق أبداً « كبار الوراقين وأهل العلم » ، على إنكار حقيقة الرجل . كما نجر من فكرة إنتحال كتب في موضوع وعمر مستصعب كموضوع الصنعة ، ثم نسبتها إلى رجل آخر . . فيقولون في نص لطيف : « وأنا أقول أن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٩٩ .

(٢) نفس المصدر السابق .

كتاباً يحتوي على ألفي ورقة ، يتعب قريحته وفكره باخراجه ، ويتعب يده وجسمه بنسخه ، ثم ينحله لغيره : إما موجوداً ، وإما معدوماً ، ضربت من الجهل ، أن ذلك لا يستمر على أحد ، ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم . وأى فائدة في هذا . . . وأى عائدة ؟ والرجل له حقيقة ، وأمره ظاهر وأشهر ، وتصنيفاته أعظم وأكثر (١) . ولكن دفاع ابن النديم عن جابر بن حيان لم يغنى عن الرجل شيئاً ، فقد ارتبط اسم الرجل بالشيعة عامة ، ويجعثر الصادق خاصة ، كما هو واضح من بعض كتبه التي وصلت إلينا منسوبة إليه ، فإن هذه الكتب ترد في صورة غنوصية تحمل معاني الظاهر والباطن ، ومتلقاه عن سيده جعفر صلوات الله عليه . والمسألة محيرة حقاً . إن كتب الشيعة إمامية أو اثني عشرية أو إسماعيلية ، لاتذكر جابر بن حيان في قوائم تلاميذ جعفر الصادق . وبالرغم من أن ابن خلكان ذكره ضمن تلامذة جعفر الصادق ، فإن الشيعة أهملوا ذكره ، بالرغم من أنهم نسبوا لجعفر الصادق كل العلوم الدينية والدينية ، بل نسبوا إليه الكيمياء نفسها ، وقد نسبوا له - كما هو معروف - كتاب « الجفر الأبيض » ، وسينسب معرفة الجفر لجابر بن حيان ، يقول « الخوانساري » صاحب « روضات الجنات » وهو يؤرخ لجابر بن حيان : « جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي ، كان من مشاهير قدماء العلماء بالأفانين الغربية من الكيمياء وللميمياء والهيمياء والديمياء ، وسائر علوم السر ، والجفر الجامع وأمثال ذلك (٢) » . ولكنه يذكر بتأكيد : « أنه لم يظفر إلى الآن على ترجمة له بالخصوص في شيء من فهارس رجال الشيعة » . ألا يدعو هذا كله إلى القول بأن جابر بن حيان شخصية أسطورية ، اخترعت في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ونسب لها كما قال « كراوس » ، تلك الكتب المختلفة في الكيمياء ، وأنها نشأت في أوساط إسماعيلية سابقة أو معاصرة لظهور « رسائل أخوان الصفا » . ثم إن إضافة كلمة صوفي إليها تثبت تماماً أنها شخصية أسطورية ؟ ولكن لماذا لانحاول تتبع إسم « جابر بن حيان » في شيعة أخرى سبقت ، كنظام غنوصي - كل فرق الشيعة الأخرى ، وأعطت مجالاً لكل العناصر الدخيلة ، وهي « فرقة الأبى هاشمية » .

(١) الفهرست لابن النديم ص ٥٠٠ .

(٢) روضات الجنات للخوانساري ص ١٥٧ .

هذه الفرقة الخطيرة التي ورثت الكيسانية في الكوفة وواسط والمدائن ، وانتقلت إليها جميع التيارات الحضارية والغامضة في هذه المنطقة ، والحضارات والثقافات المختلفة .

تلقت الأبوهاشمية ثقافة الصابئة والكلدانيين والثانوية على اختلاف مذاهبهم : مانوية وديسانية ومزدكية وماندائية، ونحن نعلم أن أباهشم بن محمد بن الحنفية، ترك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وصية غنوصية خطيرة لمحمد بن عبد الله بن عباس، ترك له فيها وثائق الدعوة ، وطلب منه أن يرسل في عام ١٠٠ هـ دعائه إلى خرسان لكي يبدأوا الدعوة الفعلية . وفي عام ١٠٠ هـ أرسل محمد بن علي بن عبد الله العباسي كبير دعاة أبي هاشم ، وهو « ميسرة أبو رباح البغال مولى الأزدي » إلى العراق ، حيث اختار ثلاثة من الدعاة الأبي هاشميين لمقابلة الإمام العباسي في الشام . يقول « الدينوري » في الأخبار للوصول : « وفي ذلك العام - يقصد عام ١٠١ هـ - ٧٢٠ م - توافدت الشيعة على الإمام محمد بن عبد الله بن عباس بن المطلب بن هشام ، وكان مستقرة بأرض الشام ، بمكان يسمى « الحميمة »، وكان أول من قدم من الشيعة ميسرة العبدى ، وأبو عكرمة السراج ، ومحمد بن حنيس ، وحيان العطار (١) . ثم توجه الثلاثة إلى خرسان . وكان الثلاثة أيضاً من موالى الأزدي وهي القبيلة التي ينتمى إليها أيضاً أبو ميسرة بالولاء . وهنا نجد الخيط الأول لحقيقة « جابر بن حيان الكوفي الأزدي » . فما لبث هؤلاء الثلاثة أن توجهوا إلى خرسان حيث بدأت الدعوة . يقول محمد يعقوبى « وأرسل - أى الإمام محمد بن علي العباسي - محمد بن حنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار ، فلقوا من لقوا بها وانصرفوا ، وقد غرسوا غرساً » . وعادوا مرة أخرى بل مرات إلى خرسان . ويبدو أن طرسوس كانت المدينة التي استقر فيها « حيان العطار » ، حيث ولد له هناك « جابر » وكان ذلك في عام ١٠٢ هـ ، ولذلك لقب جابر أيضاً « بجابر بن حيان الخرساني الطرسوسي (٢) » .

ويبدو أن حيان العطار كان ضمن من قتلوا على يد « أسد بن عبد الله القسري » حين قبض على الدعاة العباسيين ، وقد رأى استفحال أمر الدعوة ، فقد ذكر الدينوري ذلك فقال : « ثم حين تولى خالد بن عبد الله القسري ، واستعمل خالد أسد بن

(١) الأخبار . . للدينوري ص ٣٣٢ .

(٢) روضات الجنات للخوانساري ص ١٥٧ .

عبدالله على خرسان ، فاتمى خبر أبى عكرمة وحيان إلى أسد بن عبد الله ، فأمر بطلبهما ، فأخذنا ، وأتى بهما ، فضربت أعناقهما وصلباً (١) ! .

وقد أخذ جابر يتعلم القرآن والنحو والقراءة والحساب في بلاد العرب - والمقصود بها البادية - على شخصية ورد ذكرها تحت أسم « حربى الحميرى » . ولم يتكلم الباحثون عن حقيقة هذه الشخصية . . وإننى أضع هذا الإفتراض : أن « حربى الحميرى » هذا كان يمتياً من قبيلة حمير اليهودية ، وأن الكثيرين من هذه القبيلة اليهودية قد نزحوا من اليمن وقد حملوا معهم علوم الصنعة ، مختلطة بالكيبالا اليهودية ، وعلوم السحر والطلسمات وعلم النجوم ، وكان من بينهم « كعب الأخبار » الذى كان له دور علمى غامض فى المدينة والشام فيما بعد . وإننى أرجح أن جابر بن حيان تعلم على يديه أيضاً علوم الصنعة المختلطة بهذه الغنوصيات التى تسود كتاباته . وبخاصة أن ابن التديم يذكره ضمن الفلاسفة الذين اشتغلوا بالصنعة (٢) .

ثم عاد جابر إلى الكوفة لكى يزاول مهنة أبيه وهى العطار ، ويبدو أنه اتصل بخالد بن يزيد بن معاوية ، وكان هو أيضاً معنياً بعلوم الصنعة .

وهنا نساءل . هلبقى جابر بمعزل عن العباسيين ؟ إن نصاباً ما يورده كل من الطبرى وأبن الأثير يكشف عن صلته بهم ، يقول النص : « وفى سنة ١٠٠ هـ وجه محمد بن على بن عبد الله بن عباس من - أرض الشام - ميسرة إلى العراق ، ووجه محمد بن حنيس وأبا عكرمة السراج - وهو أبو محمد الصادق - وحيان العطار - خال إبراهيم بن سلمة - إلى خرسان ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته (٣) » .

ولو تتبعنا تاريخ إبراهيم بن سلمة ، لوجدنا أنه كان من كبار الدعاة العباسيين . بل إن الإمام العباسى عرض عليه أن يكون أمير الشيعة فى خرسان ، ولكنه أبى . ثم نراه مرة أخرى من بين كبار رجال الشيعة الذين بايعوا أبا عبد الله السفاح ، ووقف فى وجه الذين حاولوا إبعاده وأن يضعوا مكانه جعفر الصادق .

(١) الأخبار للدينورى ص ٢٤٤ .

(٢) الفهرست لابن التديم .

(٣) الطبرى ح ٨ ص ١٣٥ .

(٤) الطبرى ح ٨ ص ٢٤٨ .

فابراهيم بن سلمة إذن كان من المؤيدين الكبار للعباسيين . وبقى مخلصاً لهم ، فسكان على العباسيين إذن أن يفسحوا له ولابن خاله جابر بن حيان مجال في بلاطهم ، وبخاصة أن حيان والد جابر قتل في سيلهم . فلم تكن لأسرة جابر إذن علاقة مودة بجعفر الصادق ، بل على العكس كره أكبر رجالها جعفر الصادق ، وأخلص في خدمة العباسيين . ووجد جابر بن حيان المكان الملائم له في رحاب البرامكة فانقطع إلى جعفر البرمكي ، ونجد في قائمة كتبه التي أوردتها ابن النديم في « الفهرست » الكتب الآتية : — كتاب إلى علي بن اسحاق البرمكي ، وكتاب « أغراض الصنعة » . إلى جعفر بن يحيى البرمكي ، وكتاب « تليين الحجارة » إلى منصور بن أحمد البرمكي . وكان البرامكة معنيين بالصنعة ، ويذكر ابن النديم أن يحيى بن خالد بن برمك كان من رجالها . ويبدو أن الإسماعلية بعد ذلك زيفوا فيما تركه لنا الرجل من كتب ، فاستبدلوا اسم جعفر البرمكي باسم جعفر الصادق .

ويرى أبو هاشم الكوفي — وهو تلميذ غير زمني لجابر بن حيان — أن جابراً أفضى بأسرار صناعته إلى هارون الرشيد ، وإلى يحيى البرمكي وابنيه الفضل وجعفر ، وأن ذلك كان سبباً في غناهم و ثروتهم . فلما ساورت الرشيد الشكوك في البرامكة وعرف أن غرضهم هو نقل الخلافة إلى العلويين متسعين على ذلك بمالهم وجاههم ، قتلهم عن آخرهم ، واضطر جابر بن حيان أن يهرب إلى الكوفة خوفاً على حياته ، حيث ظل مختبئاً حتى أيام المأمون ، فظهر بعد الإحتجاب ، ومن هذا يتبين لنا أنه كان من رجال البرامكة ، وأنه استتر مرة ثانية خلال نكبتهم ، كما كان مستتراً ومكتوماً وهو ينتقل مع أبيه خلال الدعوة للعباسيين .

وقد يقال أنه من المحتمل أنه تصل بجعفر الصادق مع اتصاله بالبرامكة . . وبخاصة أنه كان للبرامكة ميول علوية . وأن أكبر دعاة جعفر الصادق ، وهو هشام بن الحكم ، كان منقطعاً للبرامكة . . ولكن ينقض هذا أن كتب الشيعة الإمامية قد ذكرت هشام بن الحكم وأفردت له الصفحات الطوال ، بينما أهملت ذكر جابر بن حيان كتلميذ للصادق ، ولم يكن جابر بن حيان بأقل أهمية للشيعة من هشام ، فلو صح أنه كان من رجال الصادق ، لأرخوا له الكثير وكتبوا عنه .

وهنا يأتي السؤال الأخير فيما يخص حقيقة جابر بن حيان ، وهل كان جابر عربياً أم غير عربي ؟ إن أول رواية تتكلم عن أصله غير العربي هي رواية « ليو الأفريقي » ، وهي تذكر أن جابر بن حيان أغريقي يوناني اعتنق الإسلام وتعلم العربية وعاش في أشبيلية في القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلاديين . وتهافت هذه الرواية واضح بلاشك . إن جابر بن حيان لم يكن مغربياً ، ولم يعيش في أسبانيا (إشبيلية) . إنما عاش في المشرق وتنقل بين بلدانه . ويستنتج من هذا أن جابر بن حيان كان شرقياً وأنه كان كوفياً . ثم نأتى إلى الرواية التي تقرر أنه كان عربي الجنس ومن قبيلة الأزد . فهل كان جابر أزدياً حقاً ؟ أم أزدياً بالولاء ؟ إن ذكر أبيه تحت اسم « حيان العطار » يوحي بأنه كان من الموالي ، وكان من السهولة وببساطة أن يذكر « الطبرى » « وابن الأثير » أنه كان أزدياً ، ولكننا نعلم أن أصحاب الحرف كانوا - في الأرجح - من الموالي ، ولذلك فإنتى أميل إلى القول بأن حيان العطار لم يكن عربياً، وإنما كان مولى للأزد ، والعطارة بالذات لم تكن ضمن صنعة العرب .

### جابر بن حيان والتصوف

لقد ذكر أسم جابر بن حيان منسوباً إلى التصوف ، فقبيل جابر بن حيان الصوفي ، ولعل هذا أيضاً مما دعى إلى إنكار حقيقته ، فإن الباحثين يجمعون على أن كلمة التصوف لم تظهر في عهد جابر بن حيان . وليس في ذلك وجه غرابة على الإطلاق ، فإن غلاة الشيعة في القرن الثاني الهجري كانوا يظهرون الترهّد وذلك بالتعبّد ولبس الصوف ، وكان لباس الصوف فعلاً في مرحلة من المراحل رمزاً على امتلاك صاحبة لقوة روحانية يسيطر بها على المادة .

أى أن الزعيم الشيعي الغالى كان لا بد له من معرفة بعلوم السحر والطلسمات - ، والقيام بالحيل لجذب الأتباع إلى مذهبه . وكانت هذه العلوم منتشرة لدى السوريان ولدى الكلدانين ولدى القباليين من اليهود ، وقد أخذها عن هؤلاء الغلاة من الشيعة . وقد أورد لنا ابن خلدون في مقدمته تاريخ ظهور هذه العلوم فقال : « ظهر بالشرق جابر بن حيان - كبير السحرة في هذه الملة - فنصفح كتب القوم ، واستخرج الصناعة ، وغاص في زبدتها . واستخرجها ، ووضع فيها غيرها من التأليف وأكثر الكلام فيها ، وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها ، لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية ، لا بالصناعة العملية ، فهو من قبيل السحر<sup>(١)</sup> . »  
 وضع إذن أن السحرة إنما أرادوا هذه القوة النفسية ، التي تقلب كل شيء وتؤثر في كل شيء ، وكان على الغالى الشيعي من ناحية ، وعلى المتصوف من ناحية أخرى أن يستخدمها الأول لتأييد عقائده الغالية ، والثاني لتأييد كراماته . وهذه القوة « إنما تخرج إلى الفعل بالرياضة ، ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب ، والعوالم العلوية والشياطين وذلك بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل<sup>(٢)</sup> » .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٨ .

ثم إن الكيمياء نفسها أو الصنعة - وقد نسبت إلى جابر بن حيان - كانت تستند على نفس القوة الروحية ، فلم تكن تكتفى بالتجارب العملية ، بل لا بد لها من هذه القوة التي تتجه إلى الكواكب والأفلاك لكي تعاون التجربة على أن تتحقق ، فينقلب المعدن ذهباً أو فضة . وقد ساد مصطلح الكيمياء بعد ذلك في كتب المتصوفة ، وأمير مثال على ذلك كتاب « كيمياء السعادة » للغزالي وهو في التصوف ، كما أننا سنرى نفس هذا النسق لدى الكثير من المتصوفة في القرنين الثالث والرابع الهجري . يقول نيكلسون « ويظهر الربط بين العلوم الطبيعية والعلوم الدينية في تاريخ التصوف الإسلامي في القرون الوسطى . وفي هذا المضممار سبق جابر بن حيان - وتلميذ الصادق جعفر بن محمد - والمسمى بجابر بن حيان الصوفي ، وذو النون المصري ، على كوزنيلوس أجريبا وبرا سيلبوس (١) » .

(١) دراسات في تاريخ التصوف الإسلامي لنيكلسون ص ١٠ .

(٤)

### المنهج التجريبي في رسائل جابر بن حيان

كان السبب الرئيسي في إنكار شخصية جابر بن حيان ووجوده التاريخي عند مجموعة الباحثين الأوروبيين - كما سبق القول - مجموعة الرسائل التي نسبت إليه والتي كشف الباحثون عن وجود منهج تجريبي واضح بها . بل أن « كراوس » - وهو أعظم من بحثوا في جابر بن حيان - ينكر وجوده ، لأن في كيميائه علماً تجريبياً قائماً على نظرية فلسفية « ولا يمكن أن يكون هذا العلم التجريبي قد أتضح في عصر جابر . . . » بل إن الباحثين ينسبون هذا العلم التجريبي إلى إضافات لاتينية في كتب جابر . . .

ولكن قد سبق أن أوضحت في هذا البحث أن جابر بن حيان شخصية حقيقية كما رأينا . وأنه أخذ علمه الكيميائي عن « حرنى الحميرى » وأن هذه الشخصية الغربية هي لشخص يهودى الأصل ، حمل معه علوم الصنعة ، فوصلت بما فيها من أسرار إلى جابر بن حيان بن العطار ، فطور فيها ماشاء له التطوير . وكان هناك منهج تجريبي إسلامى ، ينشأ في الوسط الإسلامى ، ولاشك أن عناصر من هذا المنهج قد وصلت إلى جابر ، وحاول أن يقيم تجاربه عليها . ولاشك أن مجموعة من أعمال جابر بن حيان العلمية قد تطورت بعده ، وأضيفت إليها إضافات كثيرة ، وأخذ المنهج الإسلامى الإستقرائى يدخل فيها ويحل محل الأسرار القديمة ، لينتج علماً تجريبياً خالصاً . فما أن وافى القرن الرابع الهجرى ، حتى كان المنهج الإسلامى الأستقرائى قد اكتمل ، ودخل هذا المنهج بالتالى في كتابات جابر بن حيان بواسطة الكيميائيين اللاحقين . . . وخاصة أن الأبحاث العلمية الحديثة في مناهج البحث قد أثبتت تكون هذا المنهج الأستقرائى الإسلامى ، وبينت كيف سبق المسلمون الأوروبيين المحدثين في اكتشافه بقرون<sup>(١)</sup> طوال . وفي هذا الضوء تكون قد حلت مشكلة المنهج في كتابات جابر بن حيان .

(١) كتاب مناهج البحث عند مفكرى الاسلام للدكتور على النشار .

إن الفكرة الرئيسية التي تظهر في المباحث المنسوبة لجابر بن حيان هي استحالة المعادن ، أى تحول ماهية معدن إلى ماهية معدن آخر ، وهذا يعنى تحول طبيعة من الطبائع إلى غيرها - والمنطق القديم ينكر هذا - ثم يمضى المنهج المنسوب إلى جابر فيقرر أننا لا نصل إلى معرفة الماهية أى معرفة الكيف ، أننا نصل فقط إلى وزن الطبائع أى معرفة الكم . أما كيف نعرفت الكيف ، فبواسطة « التجربة » . وهو هنا يصرح بلفظ « التجربة » ثم يمضى فيقول : « ان طريق التوصل إلى الحقائق ليس هو القياس الارسططاليمى ، وإنما بواسطة « قياس الغائب على الشاهد الإسلامى » .

ويقرر أن تعلق شئ<sup>١</sup> بآخر إنما يكون بالشاهد على الغائب على ثلاثة أوجه :

(أ) المجانسة . (ب) مجرى العادة . (ج) الآثار .

لست أود أن أخوض بالتفصيل في هذا المنهج ، ولكنه بلاشك منهج إسلامى أصيل ، وقد كان المنهج التجريبي الاستقرائى (١) ، هو أساس الحضارة الإسلامية ، لم تعرفه أوروبا أبداً إلا عن طريق المسلمين ، وبخاصة كتب جابر بن حيان ، والحسن بن الهيثم ، وغيرهما من علماء المسلمين .

وأرجو أن أكون قد قدمت في هذا البحث ما أثبت به حقيقة عالم مسلم هو جابر ابن حيان كيميائياً وصوفياً وكذلك أثبت أن المنهج التجريبي الذى أبتثق من مجموعة الرسائل التى نسبت إليه ، إنما هو منهج إسلامى أصيل .

١ (١) توجد رسالة دكتوراه بعنوان « المنهج الاستقرائى فى الفكر الإسلامى » نهشت بكلية دار العلوم - قدمها الدكتور عبد الزهراء بنداى العراقى .